Talmas

المملكة العربية السعودية
الأمانة العامة للاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

تاريخ مكة

دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران

تأليف
أحمد السباعي

الجزء الثاني

أعيد طبع هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ح الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السباعي، أحمد بن محمد أحمد
تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران - الرياض.
١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)
١- مكة المكرمة - تاريخ ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان
ديوي ١٢١، ٩٥٣ ١٩/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٩/١٨٠٢
ردمك :٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)

حقوق الطبع والنشر محفوظة للأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ويمثلها فيما بعد دارة الملك عبدالعزيز ، ولا يجوز طبع أي جزء من الكتاب أو نقله على أي هيئة دون موافقة كتابية من الناشر أو من يمثّله فيما بعد إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر .

في عهد الترك العثمانيين

تمهيد: كان الترك قبائل رحلاً، وكانت بلادهم تمتد من شمال الصين إلى البحر الأسود، ومن سيبريا إلى الهند وإيران، وهي المقاطعة التي نسميها اليوم تركستان . ومن أشهر قبائلهم في عهد العباسيين فيما وراء النهر : السعد، والفراعنة، والأشروسة، وأهل الشاش، ويقال لها اليوم: «طاشقند».

وقد اتصل الإسلام بهذه القبائل في عهد الأمويين على إثر فتح بخارى وسمرقند ، فقد غزتهم جيوش المسلمين ثم صالحتهم على أموال.

وفي عهد العباسيين شرعت بعض قبائلهم تهاجر إلى غربي آسيا، وتتصل بحواضر المسلمين فاستخدمهم المعتصم العباسي لحراسته، وكان أول من استخدمهم، ثم توسع الخلفاء من بعده في استخدامهم في الجيوش المحاربة، فأبدوا من الكفاءة والتفاني ما ميزهم على كثير من المحاربين . . والمهاجرون من شظف العيش وقسوته في جميع ميادين الحياة يتفانون في مواطن هجرتهم في سبيل ما يعملون حتى يصبح التفاني عادة أصيلة فيهم، ومن ثم يدفعهم ذلك إلى التبريز فيما يتفانون فيه . . وقد شهدنا في العصور الأخيرة بعض المغاربة المهاجرين إلى الآستانة يستخدمهم بعض السلاطين لحراسته الخاصة فيتفانون في خدمته، كما شهدنا مهاجري أفريقيا الجنوبية يتولون حراسة أشراف مكة ومنهم بعض العبيد، فيخلصون لأوليائهم، ويتفانون في حراستهم.

وقد هيأ هذا التفاني الأتراك لمناصب كبيرة في جيوش المسلمين، واستطاعت طوائف كالسلاجقة التحكم في مقدرات الخلافة في بغداد ، كما استطاعت بعض طوائفهم تأسيس حكومات لهم في أقطار الإسلام كمماليك الأتراك والشراكسة

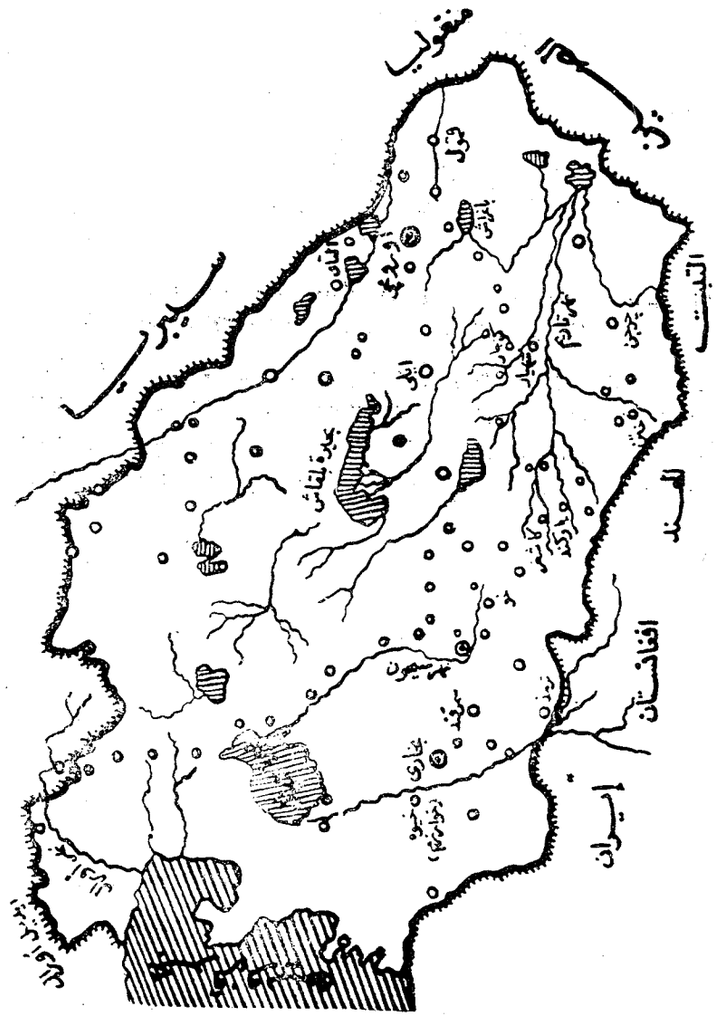

خريطة تركستان الشرقية

في مصر والعثمانيين في الأناضول ثم في بلاد الروم.

وأتراك بني عثمان من بعض هذه القبائل وكانوا قد نزلوا بالقرب من الأناضول فصادفهم جيش أتراك السلاجقة ينازل التتار فتقدموا متطوعين لنصرة السلاجقة حتى رجحت كفتهم فأراد سلطان السلجوقيين أن يكافئهم على صنيعهم فأقطع أميرهم «أرطغرل» أرضاً ينزلها في الأناضول ويبني لأتباعة إمارة فيها.

وخلف أرطغرل ابنه عثمان الذي وسع أطرافها وأعلن استقلالها في عام ٦٩٩، وخلف عثمان في إمارته المستقلة سلاطين سعوا في فتح البلاد أشهرهم بايزيد بن مراد (٧٩١هـ) الذي أخذ يعيد إلى المسلمين ودول الشرق المنكوب بعض هيبتهم خصوصاً بعد انتصاره على الجيوش الصليبية المتحدة من دول أوربا في واقعة نيكولي مما جعل العرب وحكوماتهم في دول الإسلام يعدون انتصاراته ظفراً لهم وكسباً جديداً للإسلام حتى إن مماليك الشراكسة في مصر احتفوا بأخبار انتصاراته وكتب الخليفة العباسي المنصوب عندهم في القاهرة يهنئه ويمنحه لقب سلطان الروم.

ولما حمل تيمورلنك على السلطان بايزيد واستطاع أن يأسره في عام ٨٠٤هـ شعر العثمانيون أن الشراكسة في مصر ظاهروا تيمورلنك في حركاته، واستغلوا فرضية انكسار بايزيد فضموا بعض ممتلكاته إليهم فأسرَّ العثمانيون ذلك لهم وأضمروا لهم الشر.

واستطاع العثمانيون أن ينهضوا من كبوتهم ويستأنفوا جهادهم واستطاع محمد الثاني فاتح القسطنطينية أن يتوسع في فتوحاته ثم خلفه في الفتوحات بايزيد بن محمد ثم السلطان سليم الذي استطاع أن يدك المماليك وأن يدفع جيوشه إلى

بلاد الشراكسة فينتقم لآبائه منهم وأن يستولي على مصر في أواخر عام ٩٢٢ فيقضي على حكومتهم فيها .

واجتمع في مصر بالخليفة العباسي الذي كان يعيش في كنف الشراكسة ولا يملك من الخلافة إلا اسمها وهو «المتوكل على الله» فطلب إليه أن يتنازل له عن الخلافة ففعل ، وبذلك كان «سليم» أول خليفة لقّب بأمير المؤمنين .

علاقة العثمانيين بمكة : قد يتبادر إلى الذهن أن علاقة العثمانيين بمكة كانت وليدة اتصالهم بمصر على أثر سقوط الشراكسة فيها ، ولكن الواقع أن العثمانيين اتصلوا بأصحاب مكة قبل ذلك بما ينيف عن قرن كامل ، قد أشار التاريخ إلى أن السلطان محمداً الأول جعل من أمواله جزءاً وقفه على فقراء الحرمين [١] وقد عاش السلطان قبل هذه الحوادث بأكثر من قرن كامل كما يشير التاريخ إلى أن ابنه السلطان مراداً الثاني عام ٨٢٤هـ رتب لفقراء الحرم من ماله الخاص راتباً سنوياً مقداره ٣٥٠٠ دينار كان يرسله إلى مكة سنوياً ، وأن فاتح القسطنطينية محمداً الثاني -وكان يعيش قبل عهد السلطان سليم بنحو ٧٠ سنة- كان يتعهد فقراء مكة بهداياه ، وأن السلطان بايزيد والد سليم فاتح مصر حج في السنة التي تولى فيها ملك آل عثمان وتوثقت أسباب مودته بأمير مكة لذلك العهد محمد بركات (والد الشريف بركات) كما توثقت مودته بكبار العلماء وأعيان الأهالي ونالهم بعطاياه وأغدق عليهم من خيراته ووزع على الفقراء أموالاً جمة [٢] وزار خطيب مكة الشيخ محي الدين عبد القادر السلطان بايزيد عندما كان في بلاد الروم فوصله

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٣ .

(٢) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧ .

بصلات عظيمة ، كما زاره شاعر البطحاء في عهده (شهاب الدين بن الحسين العليف) فأحسن جائزته وقد نظم قصيدته الرائية التي مدح فيها بايزيد وفيها يقول :

هو البدر إلا أنه كامل الضيا ... وذاك حليف النقص في معظم الشهر
هو الغيث إلا أن للغيث مسكة ... وذا لا يزال الدهر ينهل بالقطر
هو السيف إلا أن للسيف نبوة ... وفلا وذا ماضي العزيمة في الأمر
وإني لصوان لدرِّ قلائدي ... عن المدح إلا فيك يا ملك العصر

وقد أجازه بايزيد بألف دينار ذهباً وأمر بأن يرتب له في كل عام مائة دينار ترسل له إلى مكة وقد صارت بعده إلى أولاده [١] .

إذن فعلاقة العثمانيين بمكة كانت قديمة يرجع عهدها إلى أسلاف العثمانيين القدامى الذين كانوا في بروسيا قبل أن يفتحوا القسطنطينية وينقلوا عاصمتهم إليها وكانوا من أصحاب البر بمكة طوال القرن الذي سبق ظهور سليم الفاتح .

اتصال سليم الفاتح بمكة : كنا تركنا الشريف بركات في مكة وقد وطد أمره فيها واتخذ من ابنه أبي نمي مساعداً له في أعمالها كما تركناه يدعو لسلطان الشراكسة «الغوري» في مصر .

وما أهل عام ٩٢٣ حتى كانت أخبار الفتوحات العثمانية قد انتهت إليه في مكة وجاءته تفاصيل الأنباء بسقوط حكومة الشراكسة في مصر وحلول الحكم العثماني مكانها ، ثم ما لبث أن وافاه مندوب الحكومة الجديدة في مصر بإقراره

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧ ، وما بعدها .

على إمارته إن وافق على الدعاء للخليفة العثماني الجديد، فلم ير بركات بداً من الموافقة وأن يشفعها بندب ابنه أبي نمي إلى السلطان سليم في مصر لتبادل الثقة والولاء.

ويذكر الدحلان [1] أن الجيش العثماني وجد في سجن الشراكسة نفراً من وجوه أهل مكة كانوا قد حبسوا لمناوأتهم الشريف بركات فأطلقهم . . ثم يذكر أن العثمانيين أعدوا جيشاً ليهاجموا به مكة فصدهم عن ذلك قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة وقد كان أحد المسجونين في مصر وطلب أن يكتب إلى أمير مكة بتفصيل ما حدث ضناً في بيت الإمارة وهم أشراف مكة ولأنه يعتقد أن أميرها بركات سوف لا يعارض في تحسين علاقته بالعثمانيين فقنعوا بذلك وأرسلوا إليه بما حدث كما كتب إليه القاضي يقترح ندب ابنه أبي نمي إلى مصر فرحب بركات بالفكرة ومن ثم أوفد ابنه إلى مصر وقد قابله السلطان سليم فيها بحفاوة وأكرمه وأقره هو ووالده على إمارة مكة وجعل لهما نصف الواردات في مكة وجدة وذلك في سنة ٩٢٣ [1]. وقد ظل بركات بعد هذا في إمارته يدعو للخليفة العثماني الجديد ثم ما لبث أن أضاف الصيغة الجديدة إلى الدعاء (أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين).

وعني السلطان سليم بشؤون الحرم وأرسل هداياه إلى مكة وأعيان الأشراف فيها ووزع على فقرائها كثيراً من الصدقات ورتب لهم مقداراً عظيماً من القمح ظل يرسله سنوياً إلى مكة وهي أول جراية من الغلال رتبت للصدقة في مكة في شكل منظم إذا استثنينا قبلها بعض الصدقات غير المنظمة [2].

(١) خلاصة الكلام ١٧٨

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١

ويذكر السنجاري في منائح الكرم «مخطوط» أن غلال الصدقة ظلت تتزايد بعد السلطان سليم حتى أصبحت تكفي لمعاش أهل مكة من العام إلى العام.

محمل رومي: واتخذ السلطان سليم له محملاً رومياً جعل يرسله إلى مكة سنوياً بجانب المحمل المصري ويرسل في صحبته كسوة الكعبة من نفقاته الخاصة[1].

وبقي بركات يستعين بابنه أبي نمي الثاني في إدارة الأمور بمكة حتى وافته منيته في سنة ٩٣٢ عن عمر يزيد عن سبعين عاماً فطيف بجنازته حول الكعبة سبعاً قبل دفنه وكانت مدة ولايته استقلالاً ومشاركة لابنه وإخوته نحو ٥٣ سنة [2].

أبو نمي الثاني: وبوفاة بركات انتقل الأمر إلى أكبر أبنائه وشريكه بالأمس محمد أبي نمي الثاني وعمره آنذاك نحو عشرين سنة.

يعد المؤرخون أبا نمي هذا من رؤوس أشراف بني بركات كما يعدونه زعيماً قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى، وكان إلى جانب هذا مشهوراً بنظامه الذي شاع عنه والذي قالوا: إنه يجعل دية الرجل من الأشراف تعادل أربعة أمثالها من غير الأشراف، وقد حاولت أن أجد نسخة من هذا النظام فلم أعثر على شيء من ذلك . . إلا أنني وجدت أخيراً نص اتفاقية أبرمها بعض الأشراف من أحفاد أبي نمي في عهد يحيى ابن سرور مؤرخة في عام ١٢٣٧ هـ. وهي -كما يذكر مؤرخوها- منقولة من وثيقة للشريف مسعود بن سعيد عن «أعراف» سابقة من آبائهم، ولا يبعد أن يكون المقصود من آبائهم هو أبو نمي أو أولاده.

(١) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١.

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»